

القوة والمعنى للإنسان وعلاقتها بالتغيير الحضاري في فكر مالك بن نبي

أ/ السائح سويح - جامعة زيان عاشور بالجلفة

مقدمة:

إن دراستنا للإنسان في فكر مالك بن نبي الذي يعتبره محور التغيير الحضاري يعني تتبع مناحي الثنائية في كتاباته حول الإنسان والمتجسدة في الثنائية القائمة بين الذاتي والموضوع وتجاوزهما، والتي تكتسي مفهوم القوة والمعنى للإنسان داخل الحضارة الإنسانية، فالقوة التي يكتسبها في هذا الحقل المتطور والمتجدد يعني تحقيق الرغبة الذاتية في ناحية، وتحقيق الأهداف الموضوعية للجماعة والمجتمع من ناحية أخرى.

فلذا نجد رؤية مالك بن نبي السوسيولوجية تسير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في اتجاه دحض النظريات الماكرو-سوسيولوجية التي تجعل الفرد نتيجة للظواهر الاجتماعية، فهو يولي الأهمية القصوى للفرد (الإنسان) وكل ما يقوم به من سلوكات، ويرى أنها مؤثرة في الظواهر الاجتماعية، ومن ثمة في التغيير الاجتماعي، كون الفرد يتلقى تكويناً شخصياً وواقعاً اجتماعياً.

كما يذهب المفكر مالك بن نبي بالقول أن الإنسان الواعي هو الذي يصنع شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع. وفي نظره أن الإنسان الواعي الذي يحب الوصول وتشكيله هو الإنسان الفطري سيمتلك قوة الروح إذا ما غرسنا فيه الفكرة الدينية ليكون له معنى داخل المجتمع، وأردنا أن نعيد تجديد الحضارة.

ويجعل المفكر مالك بن نبي الفرد بين مخافتين: أولاً أن هذا الفرد لا يملك أمام قوة وبطش حضارة التكنولوجيا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لا يملك شيئاً في أدوات الحضارة، وفي هذا الشأن يراهن مالك بن نبي على الجانب الأخلاقي، لإيمانه بأن الحضارة لا تقوم إلا عليه، يقول بهذا الصدد « ليس الهدف أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة وإنما الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائهم أعني أن نعلمهم كيف يتحضررون »¹.

ومن هذه الأفكار وغيرها سوف ننطلق في تحليل الإشكالية التالية:

- كيف يكون الإنسان محور التغيير الحضاري في فكر مالك بن نبي؟.

ولإجابة على هذه الإشكالية ارتأيت أن أتبع الخطوات المنهجية التالية:

أولاً: القوة والمعنى للإنسان في فكر مالك بن نبي.

ثانياً: مفهوم التغيير الحضاري عند مالك بن نبي.

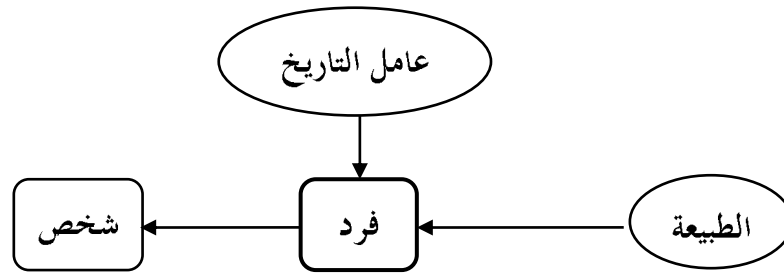
ثالثاً: علاقة القوة والمعنى للإنسان بالتغيير الحضاري.

أولاً: القوة والمعنى للإنسان في فكر مالك بن نبي.

إن المتتبع لكتابات مالك بن نبي يدرك جيدا تفريقه بين كلمة الفرد والشخص فالأولى لا تحمل في طياتها القوة والمعنى باعتباره انتاج الطبيعية عكس الثانية التي تحمل في طياتها القوة والمعنى والمرتبة بالنزعات الاجتماعية وفق المنتج التاريخي فهو يقول « إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا " undividu " إلى أن يصبح (شخصا) " personne " وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»².

وهنا نجده يميل بشكل واضح وغير صريح إلى مفهوم القوة في الإنسان (الشخص) إذا يربط الإنسان بالقدرة التحويلية للفعل من أجل الدخول في العلاقات الاجتماعية وشبكاتها، والمتمثلة في التفاعل، فهو يقول أنه « يجب أن لا ننسى أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية بوصفه مادة خاما، بل يدخل في صورة معادلة شخصية، صاغها التاريخ وأودعها فيه خلاصة تجارب سابقة وعادات ثابتة »³.

وبذلك يمكن توضيح الفكرة بالنموذج التوضيحي التالي:



النموذج رقم "1": تكوين الشخص

ونلخص من هذا أن لكل إنسان معادلتين معادلة بيولوجية يتساوى فيها البشر ولا اختلاف فيها بين المجتمعات، ومعادلة اجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر، وفي المجتمع نفسه تختلف من عصر إلى آخر باختلاف درجة النمو أو التخلف.

أما المعادلة البيولوجية فهي منحة الله لجميع الناس، « وأما المعادلة الاجتماعية فهي نتاج المجتمع، وهي القاسم المشترك الذي يطبع سلوكهم ويجدد درجة فعاليتهم أمام المشكلات بما يميزهم عن أفراد مجتمع آخر، أو عن جيل آخر من مجتمعهم، إذ كان الفاصل الزمني كافيا بين جيلين»⁴.

فالإنسان إذن محكوم عليه بالتواصل والتجمع، سواء في وجوده لمادي أو في وجوده الاجتماعي، وهكذا ظهرت خصائص المجتمع البشري منذ الأشكال الأولى للتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والإنسان الذي أهله قدراته وفطرته لاستحداث هذه النظم يوجه بها نشاطه ويصوغ فيها حياته، بما يمسكها ويغنيها ويكملها ويطورها ويغيرها، لم يفعل فيها ذلك كله دفعة واحدة وإنما انحدر إليه من ميراث طويل، ميراث متحرك، ميراث خلاق، وتصوغ من كل ذلك كلا وظيفيا يمثل قلب المجتمع وجسمه⁵.

ولو أننا صححنا معنى الإنسان في أذهاننا، إذن لأدركنا مباشرة السبب في أنه يحرك التاريخ أحيانا، وأحيانا أخرى لا يحرك ساكنا في حين أن الإنسان في كل الظروف هو الإنسان الذي كرمه الله. وهذا يجبرنا على أن نقدر أن معادلتنا الإنسان بقيمته هي التي تحدد فعالية الإنسان، إنسان في جميع أطوار التاريخ لا يتغير فيه شيء بل تتغير فعاليته من طور إلى طور، وهذا يعني أن شخصيته ليست بالبسيطة، وإنما هي مركبة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كيانه إنسانا وعنصر متغير يحدد قيمته كائنا اجتماعيا⁶. ومن الملاحظ حسب مالك بن نبي فإن الإنسان يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات⁷: أولا: بفكره. ثانيا: بعمله. ثالثا: بماله.

ويتطلب هذا التأثير عناصر أساسية حتى يكون له معنى داخل المجتمع ويكتسي الإنسان قوة ومن أجل هذا رأى مالك بن نبي تحديد القوة والمعنى حتى يكون للإنسان دور فعال.

أ - عناصر القوة والمعنى للإنسان في فكر مالك بن نبي.

لقد جعل بن نبي القوة تنبع من التوجيه وفي هذا الصدد يقول: " التوجيه قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نستغلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه متجهة إلى الهدف نفسه فالتوجيه هو إدارة ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين" وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركة دفعة دينية، وبلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى "الجماعة" ومعنى "الكفاح"⁸.

وتبنى هذه القوة من ثلاث توجيهات أساسية وهي **توجيه الثقافة، توجيه العمل، توجيه رأس المال** وسنتناول هذه النقاط بشيء من الاختصار

1- توجيه الثقافة:

ويشمل التوجيه الثقافي العناصر الجوهرية الأربعة والمتمثلة في الدستور الخلقى والذوق الجمالي والمنطق العملي والفن التطبيقي أو " الصناعة" بمعنى الكلمة القديم لا الحديث. ويعرف بن نبي الثقافة بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته، وهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وتوجيه الثقافة يعني توجيه الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية، وهذه الصلات يبعثها الدين أصلا، وقوة التماسك الضرورية لمجتمعنا موجودة في الإسلام ولكن أي إسلام الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا

والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي، ويعني التوجيه الثقافي في بعده الثاني التوجيه الجمالي، إذ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة.

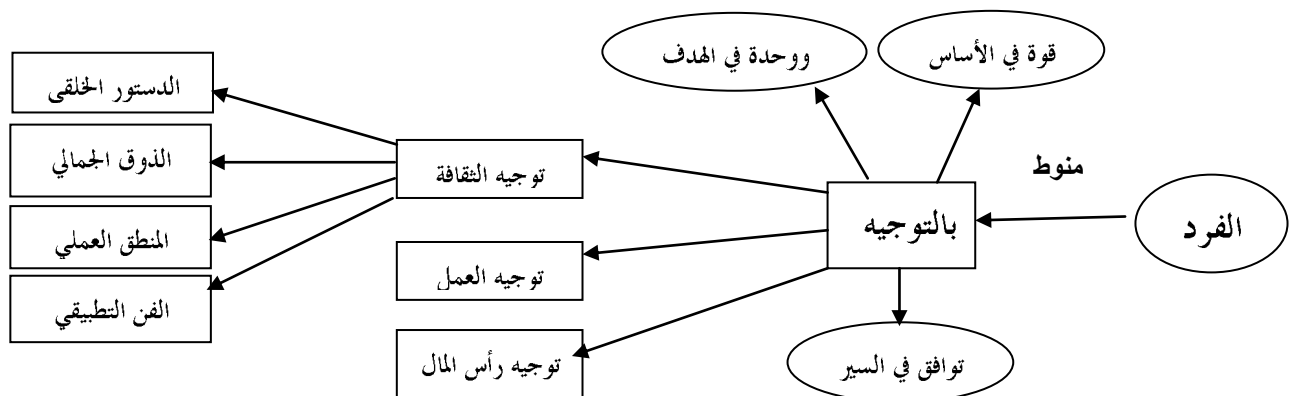
أما التوجيه الثقافي في بعده الثالث التوجيه التقني أو ما يسميه "الصناعة"، وهو تكوين المتخصصين المطلوبين في كل نواحي النشاط الاجتماعي المختلفة من اقتصاد وغيره وإعطاء هؤلاء أماكنهم وفقا للحاجة، والعنصر الرابع من برنامج التوجيه التربوي للثقافة عنده هو المنطق العملي.

2- توجيه العمل

ويراد به أن ينتقل المجتمع من حالة العطالة والعبث إلى حالة العمل الموجه، إنه سير الجهود الاجتماعية في اتجاه واحد، وهو في البداية عمل تطوعي له هدف تربوي فإعطاء ثلاث حروف من الأبجدية عمل، وتقبل هذه الحروف عمل، وإزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء نصح عن النظافة أو الجمال دون أن يغضب الناصح حين لا يصغى لنصحه عمل، وغرس شجرة هنا عمل، واستغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل، وهكذا.. فنحن ما دمنا نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ، فتوجيه العمل هو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة⁹. ويرى بن نبي أنه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك؛ لأن هذا التوجيه حين يتحد مع توجيه رأس المال يفتح مجالات جديدة للعمل.

3- توجيه رأس المال

إن مفهوم رأس المال يختلف عن مفهوم "الثروة" وإن كنا-كما يقول بن نبي- معتادين على الخلط بينهما: "الثروة" شيء شخصي يستعمل للوجاهة الاجتماعية أو لإرواء الحاجات الخاصة للمالك، أما "رأس المال المتحرك الذي يخلق حركة ونشاطا" ويوظف الأيدي والعقول، وتحويل "الثروة" إلى "رأس مال" هو عمل نهضوي يجب أن تقوم به كما يرى بن نبي هيئة مخططة تهدف إلى تحويل كل قطعة نقدية إلى كيان متحرك يخلق معه العمل والنشاط، وتحويل أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد. "وتكوين رأس المال ممكن، حتى في وطن فقير إذا ما اتحدت فيه الجهود وتوجهت نحو الصالح العام¹⁰. ومما سبق يمكن حصر المفاهيم الأساسية في مخطط توضيحي حتى يتسنى لنا معرفة القوة التي يكتسبها من أجل إحداث التغيير ويكون الفرد له معنى في إطار المجتمع :



ثانياً: مفهوم التغيير الحضاري عند مالك بن نبي.

إن المجتمعات البشرية في تغير دائم منذ كانت حضاري¹¹، وهذا التغير هو سبيل بقائها ونموها، فهي تتكيف مع واقعها، وتختلف درجة التغير ونوعيته من مجتمع إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى باختلاف المكان والزمان، فالتغيير الحضاري هو إذن عملية موازية تمسك على المجتمع كيانه، وتلائم بين تنظيماته، وتقوم وظيفتها على إشباع الحاجات الأساسية والفرعية لأعضاء المجتمع¹¹.

والتغيير الحضاري حقيقة منطقية لأن أي فرد إنساني يمكن أن ينشأ في ظل حضارة عاملة، فينشأ عليها متشرباً بقيمتها، مطبوعاً بطابعها، وهو حقيقة تاريخية لكثرة ما اختلفت على الأرض مدى التاريخ الطويل من ألوان الحضارات أفانين وأشتاتاً¹².

وقد درج الاجتماعيون، خاصة الأنجلوسكسونيين منهم على استعمال تعبير التغيير الاجتماعي للدلالة على ظاهرة التحول والنمو والتكامل، والتكيف والملاءمة، التي يتعرض لها كل نظام حضاري، وهذه الظاهرة خاصة من خصائص الحضارة نفسها، وهذا يعني أن التغيير الاجتماعي جزء من التغيير الاجتماعي الذي هو أوسع نطاقاً، وأبعد امتداداً¹³.

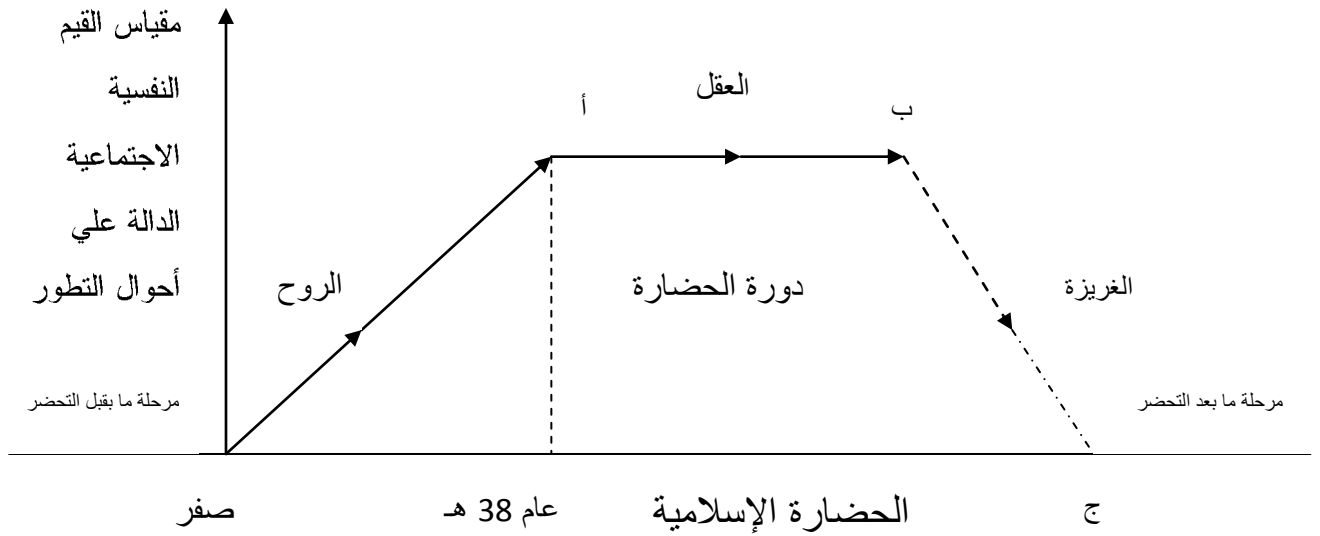
ويربط مالك بن نبي التغيير الحضاري بالتغيير الاجتماعي ويتضمن التغيير بعداً آخر وهو ما يسمى بالحركة والجماعة التي تتغير و تتحرك، فهناك وسط إنساني يحتوي على عامل أساسي يقهر الجمود والخمول حينما يحول الخمول إلى قيم ديناميكية حركية، وهذه الحركة (التغيير) حسب مالك بن نبي تؤدي إما إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية وإما أن تسوقها على عكس ذلك إلى وضع مختلف أي إلى حضارة أو إلى الانهيار.

كما يربطه بالتطور الذي عرفته الدول الغربية في ميدا التصنيع، ومضمون الحضارة عنده هي جملة من الظروف والمتطلبات المعنوية التي تمكن مجعماً من مساعدة كل فرد من أفراده طيلة حياته من أجل نموه خلال مراحل تطوره: المدرسة، الورشة... الخ، توفير كل أشكال الأمن في أرجاء البلاد واحترام شخصية الفرد¹⁴.

كما يعتبر الحضارة هي نتاج فكرة حية تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج المثالي الذي اختاره، ويقدم على هذا للفكرة المسيحية في دخول أوروبا التاريخ، إذ بنت عالم الأفكار ابتداء من عصر النهضة حين كشفت اللثام عن العالم الإغريقي فتعرفت على سقراط باعث الأفكار، وأفلاطون مؤرخ الأفكار وأرسطو منظم الأفكار، وكان للأفكار دور وظيفي لإنشاء حضارة¹⁵.

وكل حضارة تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، ونحن نملك نقطتين من دورتها، باعتبارها ليستا محل نزاع، والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من الأولى في خط صاعد، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل... أما الطور الانتقالي الذي يتوسط هذين الخطين في طور

وسيط، هو طور الأوج، ولو حاولنا ترجمة هذه الاعتبارات، في صورة تخطيطية، لحصلنا على التخطيط التالي¹⁶:



النموذج رقم (3): يوضح القيم النفسية الزمنية لإحدى الحضارات

1- مرحلة سيادة الروح: وهي بداية الصعود

إن الفرد في هذه المرحلة يكون عند نقطة الصفر في الصورة التخطيطية، أي في حالة الفطرة وحين تجيء الفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائزه بـ "عملية شرطية" ليس من شأنها القضاء على غرائزه، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.

2- مرحلة سيادة العقل: وهي مرحلة الانتشار والتوسع

وبعد المرحلة الروحية "يوصل المجتمع تطوره... وتكتمل شبكة روابطه الداخلية... فتتسأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله... وفي كلا الحالتين فإن المنعطف هو منعطف العقل... حيث تشرع الغرائز في التحرر من قيودها، بالطريقة التي شاهدها في عهد بني أمية، إذ أخذت الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج، وأخذت الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تتطلق بقدر ما تضعف الروح"¹⁷.

3- مرحلة سيادة الغريزة: وهي مرحلة الأفول والانهايار

"وعندما يبلغ التحرر من الروح تمامه... يبدأ طور الغريزة تكشف عن وجهها تماماً، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماماً، في مجتمع منحل، يكون قد دخل نهائياً في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة الحضارة"¹⁸.

"فالدوافع السلبية التي خلقتها " صفين " في المجتمع الإسلامي تنمو فيه يوماً فيوماً، إلى أن أتي القرن الثامن الهجري، فأخذت الحضارة في الأفول وبدأت الظلمات تغمرها في الأندلس"¹⁹.
ويؤرخ لتلك الظاهرة " بسقوط دولة الموحدين، الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها"²⁰.

ثالثاً: علاقة القوة والمعنى للإنسان بالتغيير الحضاري.

لقد شهد العالم الإسلامي منذ مطلع القرن العشرين نهضة فكرية، اهتمت منذ بدايتها بالإصلاح الديني والثقافي، مما شهد بروز نظريات متنوعة، تختلف من مفكر إلى آخر لاختلاف النزعة والمذهب، لكن الملاحظ أن جميع المفكرين توقفوا حيث بدأوا، والمشكل يكمن في المفكر ذاته، إذ يعتبر أن التنظير كاف لحل مشاكل الإنسان، وأن الإنتاج الفكري هو معيار التقدم وفيصل التفرقة بين الأمم المتحضرة والمتخلفة. لكن الحقيقة الواضحة أن التنظير مهما بلغ من الإتقان والاتساق يكون عديم الجدوى، إذ لم يتجه صاحبه إلى تجسيده، والإصرار على اختباره والعمل على إخراج الخطاب من بؤر التجريد إلى بؤر الفعل، إذ لا بد أن يتحول المفكر من منطلق التنظير إلى منطلق البناء²¹.

ومن ميزت رؤية مالك بن نبي أنه لا يريد أن يحبس نفسه في عالم التنظير والفلسفة، وإنما حاول أن يتجه إلى بناء أفكاره عن طريق تحديد وسائل البناء، وإذا كان الإنسان هو مناط الأمر وواسطة العقد في فلسفته، فإن شروط البعث والإحياء والنهضة تتطلب التحول من نقد العقل والذات إلى نقد الفعل والحال.

إن انتقال «بن نبي» من مجتمع تلفه ظاهرة التخلف العلمي والتقني إلى مجتمع آخر يتميز بالتقدم العلمي والتقني المتطورة أثار فيه ولع التقصي لأسباب الظاهرة، وإجراء المقارنات والظروف المحيطة بكل منهما. لقد لاحظ بحسه التربوي أن التنشئة العملية والتكنولوجية في المجتمع الفرنسي تبدأ مع الطفل، حيث تتألف أعباءه من أجهزة وأدوات ميكانيكية يعبث بها ويفككها و «الأطفال ينشئون في هذا الاتجاه منذ صغرهم إذ الهدية الأولى التي تقدمها لهم الأسرة لعب «الميكانيكو»²².

ونظراً إلى ملاحظاته المستمرة وتنشئته الإسلامية والدينية التي تلقاها في أسرته وبيئته الجزائرية وتنقيفه الإسلامي، إلى جانب المؤثرات الجمالية والتقنية والعملية التي أخذها عن البيئة الفرنسية، فقد ترجمها في ما بعد في فكرة أساسية، هي أن مشكلة المجتمع المتخلف هي مشكلة بناء حضارته، وبناء الحضارة لا يتم دون بناء للثقافة.. بناء يكون بالضرورة تربوياً، خاصة في مجتمع يعيش حالة اللاحضارة واللاتقافة.

1- القوة والمعنى للإنسان لفهم الحضارة:

الحضارة عند مالك بن نبي هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه²³، فالحضارة إذن حصانة لحياة الإنسان، وفيها تأمين على مصيره، وتوفير لاحتياجاته، وحفاظ على شخصيته الوطنية والدينية. و هي النتائج الحاصل ضرورة عن حركة المجتمع، حركة شاملة، في مجال الفكر والاقتصاد وفي رحاب التوازن الروحي والمادي. فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي.

ولا تستطيع أمة من الأمم أن تخلق حضارة إلا إذا توفرت جميع هذه الشروط، الأمر الذي يمكن المجتمع أو هذه الحضارة من أن تحل، أما مجرد اقتباس المنتجات المادية من حضارة أو حضارات أخرى، فإنه لا ينشئ (حضارة)، إن هذا الاقتباس - أو الاستيراد - لا يعدو أن يكون (تكديسا) للمنتجات، أي (الأشياء) الحضارة، وليس تأسيسا أو (بناء) لحضارة جديدة، ولهذا ناد مالك بن نبي بوجوب أن ينتقل العالم الإسلامي من (التكديس) إلى (البناء).

وإذا جاز لهذا التكديس أن يسمى حضارة، فهو (الحضارة الشيعية) كما يسميه بن نبي لأن أي حضارة لا يمكن أن تبني جملة واحدة الأشياء التي تنتجها ومشتلات هذه الأشياء، أي أنها لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها الذاتية وأذواقها.. وبدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح وبغير هدف²⁴.

إذن فالحضارة لابد وأن تصنع منتجاتها، حيث إننا لا نستطيع استيراد روح أي حضارة وقيمها ومعانيها التي تربط بين ما يسميه ابن نبي بعناصر الحضارة، وتتم تبعا لتأثير ثلاث جوانب أساسية وهي :

- أ - تأثير عالم الأشخاص .
- ب - تأثير عالم الأشياء .
- ج- تأثير عالم الأفكار .

لكن هذه الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص.. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تتسجم في صورة حضارة، يعد ضروريا أيضا²⁵.

وتتمثل في تقسيم آخر: بالإنسان والوقت والتراب، فإذا حلت مشكلاتها كانت حضارة، ولكن هذا لا يعنى أن توفر العناصر الثلاثة، ومحاولة حل مشكلاتها، يوفر تكون حضارة تلقائيا،

ولكن كما أن القانون في الطبيعة يحتم تدخل مركب ما لإتمام عملية كيميائية، فكذلك "وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي... نجد أن هذا (المركب) موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ"²⁶.

ونستعرض عناصر الحضارة كما جاءت عند مالك بن نبي:

1- الإنسان:

هو الذي يوجه الأشياء، والأفكار، والوقت، والتراب، ويصنع الحضارة.

فالإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية للمعادلة التي صاغها ابن نبي، وإن كان مالك بن نبي يتحدث عن إنسان الحضارة بصفة عامة إلا أنه يعنيه في هذا المقام الإنسان المسلم، ولكي يكون هذا الإنسان قادرا على تحقيق النهضة لابد له من شروط ثلاثة²⁷:

أ- أن يعرف نفسه، ويعمل على تنقيتها من كل أنواع التخلف.

ب- أن يعرف الآخرين وألا يتعالى عليهم وألا يتجاهلهم.

ج- أن يُعرّف الآخرين بنفسه، ولكن بالصورة المحببة، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر.

ومن هنا على الإنسان بالدرجة الأولى و المسلم بالدرجة الثانية أن يحاول تصفية وتنقية مفاهيمه فيخلص من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، ويقصد بن نبي بالأولى: الأفكار التي يصنعها المجتمع بنفسه، ثم تبقى في تراثه الاجتماعي " أفكارا ميتة" كتلك التي ورثها المجتمع الإسلامي من عصر ما بعد الموحدين. وقال: إن هذه الأفكار تمثل خطرا أشد عليه من خطر "الأفكار القاتلة" لأنها منسجمة مع عاداته وتفعل فعلها في كيانه من الداخل! ويؤكد بن نبي أن هذه الأفكار "التي كانت قاتلة في مجتمع حي قبل أن تصبح ميتة في مجتمع يريد الحياة، لم تولد بباريس أو لندن، بل ولدت بفاس والجزائر وتونس والقاهرة، أما الثانية فهي التي نستعيرها من الغرب، وقد مثل لهما بن نبي "بالجانب الذي نسميه الاستعمار، والجانب الذي نطلق عليه القابلية للاستعمار"²⁸.

2- التراب:

لقد عنى بن نبي بهذا العنصر قيمته الاجتماعية التي يستمدّها من قيمة مالكيه " فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط"²⁹.

وبن نبي يستخدم هذا المصطلح لأنه عماد حياة المجتمع المادية "ومن التراب كل شيء على الأرض، وفي باطنها، ومعنى التراب هنا ليس هو المعنى المتبادر إلى الذهن. فقد تعمّدت ألا أستخدم كلمة مادة لأسباب فقلت: "التراب". لأن التراب يتصل به الإنسان بصورتين: صورة الملكية أي من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقق للفرد الضمانات الاجتماعية. فالتراب

هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث التشريع، وهو يتصل به بصورة أخرى من ناحية علم التراب والمعلومات التي تتصل به كالكيمياء وغيرها، فالتراب نعنى به هذين الجانبين جانب التشريع، وجانب السيطرة الفنية³⁰.

3- الوقت:

وهو الزمن الذي بتحديدده يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو على ذلك جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن وفي "ساعات الخطر في التاريخ تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يقوم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر³¹.

والعالم الإسلامي لا ينقصه معرفة شيء اسمه (الوقت)، ولكن ينقصه إدراك معناه، فينتهي عنده الوقت إلى عدم "ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالتاريخ، مع أن فلكياً عربياً مسلماً هو "أبو الحسن المراكشي" يعتبر أول من أدرك: هذه الفكرة الوثيقة الصلة بنهضة العلم المادي في عصرنا³².

2- أثر الدين في القوة والمعنى للإنسان لتفعيل الحضارة:

إن أهمية الدين والفكرة الدينية في حياة الأفراد والمجتمعات، كبيرة جداً، لأن لها علاقة بحركة التاريخ وقيام المجتمعات وبناء الحضارات، الأمر الذي جعل "مالك بن نبي" لا يسقط الفكرة الدينية من جميع مناقشاته وكتاباته، فكيف يغفلها وهي أساس بناء الحضارة وأساس تحريك عجلة التاريخ وأساس تشييد صرح المجتمع المتحضر، وإذا كان الدين في نظر البعض عامل تخدير وجمود وتخلف فعنده عامل تركيب وتأليف بين عوامل وشروط ولوازم البناء الحضاري.

إن عناصر التحضر وشروطه موجودة لدى كافة الأمم والشعوب، لكن استثمار هذه الشروط والعناصر والتأليف بينهما أمر يحتاج إلى شرط خاص يتمثل في التحدي عند "توينبي" وفي الجدل لدى "هيجل" وفي الفكرة الدينية عند "مالك بن نبي"، فهي وراء البناء الاجتماعي، "قسواء كنّا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أم كنّا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم واختفت تماماً من الوجود نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية³³.

إن حركة التطور الاجتماعي مصدرها عوامل دينية واجتماعية تتمثل في ظواهر علاقات تبني المجتمع وتسعى إلى تنمية وتطوير حياته، فتصير تلك الظواهر والعلاقات بمثابة عوامل وقوانين تحرك التاريخ وتصنع التقدم والازدهار، "فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان... فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجه التاريخي على أنها حدث ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد³⁴.

إنَّ الفرد في نقطة انطلاق البناء الاجتماعي والحضاري هو فرد طبيعي فطري غريزي، تقوم الفكرة الدينية بضبط وإخضاع غرائزه ليس بإزالتها بل بتنظيمها وفق نظام يضمن انسجامها مع معطيات الفكرة الدينية، فيصير الجانب الحيواني فيه خاضعا لقوانين يفرضها الدين، فتسيطر على فكر الفرد وتأملاته وسلوكه مطالب وحاجات روحية، ويحصل الارتقاء من البهيمية الطبيعية إلى مستوى الروح في سلّم التغيير والتطور وكان هذا التحول النوعي في حياة الفرد من صنيع الدين.

ولما يبسط العقل سلطانه على عرش الحياة الفردية والاجتماعية تنهض العلوم والفنون والصناعات، فتجد الغرائز والشهوات سبل ومنافذ للتحقق والإشباع، لأن العقل لا يملك قدرة السيطرة عليها، فهو ليس في مستوى الروح التي تضعف وتستكين وتعري الغرائز عن وجهها بشكل تام، فتتوقف وظيفة الفكرة الدينية في المجتمع، وهي مرحلة تغيب فيها شمس الحضارة ويدخل المجتمع "نهائيا في ليل التاريخ وبذلك تتم دورة في الحضارة"³⁵.

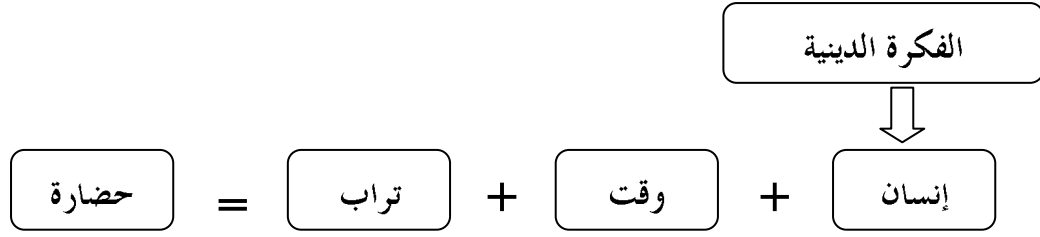
إنَّ جميع الاعتبارات السابقة حسب "مالك بن نبي" تبين لنا الدور الذي يلعبه الفرد في القيام بوظيفية وأداء رسالته الحضارتين بإيعاز من الفكرة الدينية، كما تحل الفكرة الدينية مشكلة استمرار الحضارة، فالحضارة لا تدوم ولا تتواصل مظاهرها إلا بوجود علة هي الفكرة الدينية مرتبطة بغاية معينة، فيضفي ذلك على الحياة دلالة ومعنى.

من جهة أخرى فإذا كان كل ناتج حضاري عند "مالك بن نبي" تركيب وتأليف بين عناصر ثلاثة هي الإنسان والتراب والوقت فإن الفكرة الدينية لها دورها في ظهور نواتج الحضارة وفي تكوين الحضارات.

ركّز "مالك بن نبي" في دراسته لتكوين الحضارة في بدايتها الأولى على دورتين هما: الدورة المسيحية والدورة الإسلامية، بين "السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، ليعتثها قوة فعالة في التاريخ"³⁶.

ومن هذا فإن مالك بن نبي يولي أهمية للدين فهو يكسب الإنسان القوة والمعنى داخل الحضارة فهو يمثل العامل الأساسي القادر على تشكيل الظواهر والعلاقات والقيم الاجتماعية، والفكرة الدينية هي مركب القيم الاجتماعية، « هذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل ومن التراب مجالا مجهزة مكيفا تكييفاً يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج، أما إذا صار الإيمان إيمانا جذيبا دون إشعاع أعني نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها»³⁷.

وهذا ما يمكن توضيحه بالمخطط التالي:



العناصر الثلاثة تظل في حالة سكونية إلى أن يدخل الدين بصفته قوة أساسية تحدث التآلف والتركيب الحضاري.

النموذج رقم(4): يمثل معادلة مالك بن نبي للحضارة

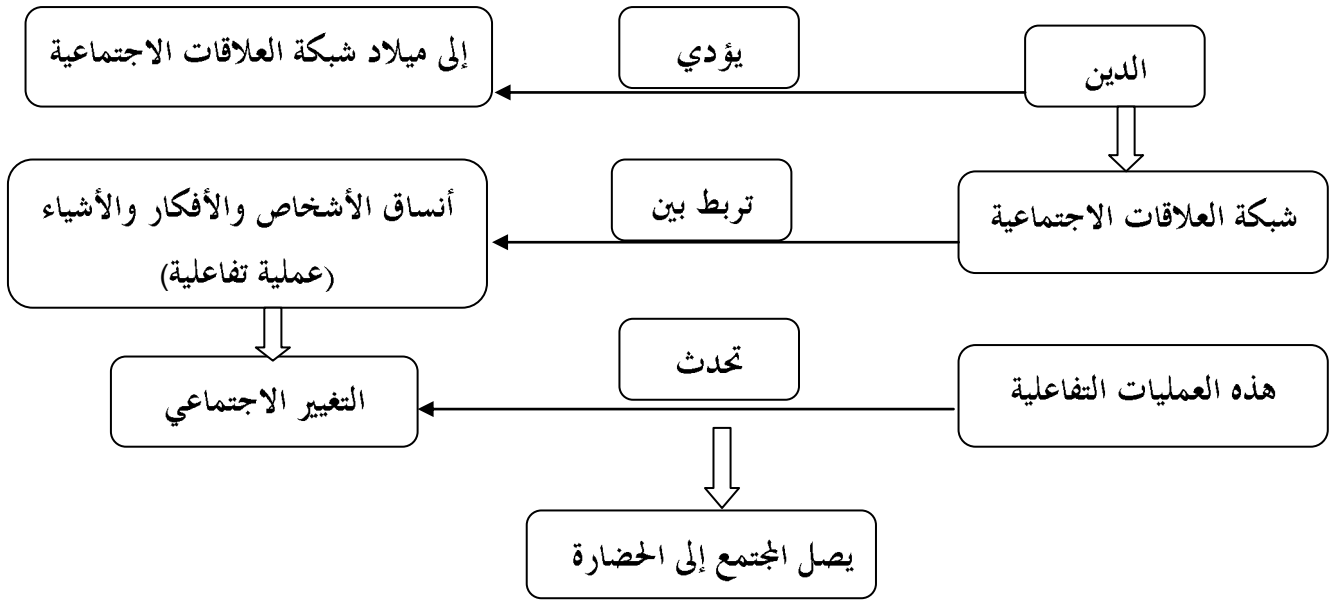
3- القوة والمعنى للإنسان لإنشاء شبكة العلاقات الاجتماعية في الحضارة:

إذا كان التاريخ يصنع بتأثير العوالم الثلاثة تعمل باشتراك طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار وبوسائل تنفيذية من عالم الأشياء لأجل غاية محددة من طرف عالم الأشخاص، وإذا كانت هذه الوحدة التاريخية ضرورية "فان توافق هذه الوحدة مع الغاية منها يعد ضرورة أيضا وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع هو مجموع العلاقات الاجتماعية أو ما نطلق عليه شبكة العلاقات الاجتماعية"³⁸.

فهذا العالم الذي يسميه ابن نبي "شبكة العلاقات الاجتماعية" هو مجموع تلك الصلات التي تقوم داخل عالم الأشخاص ولها تأثير على العوالم الأخرى التي تنتقل بأعضاء المجتمع من مجرد (كومة) إلى (كل) ينسجم مع أهداف المجتمع الإنساني الذي "يقرر فكرته في مستوى آخر ليس مستوى البقاء ولكن مستوى تطور النوع ورفيقه"³⁹.

إن شبكة العلاقات الاجتماعية كلحمة قوية تشد العوالم الثلاثة خاصة عالم الأشخاص وتحقق فيه مغزى قوله صلى الله عليه وسلم (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)⁴⁰، وهي أيضا مشروطة بالفكرة الدينية التي تعطي لهذا التماسك أبعاده الروحية، والتي تجعل العلاقة الاجتماعية (إنسان - إنسان) وللعلاقة الروحية (الله - الإنسان)، بل إن هذه الشبكة رهينة في بقائها بالجهاز الدفاعي الذي يخلقه الدين من خلال القوانين والمبادئ الخلقية، وبهذا المعنى فشبكة العلاقات الاجتماعية بحمولاتها الدينية تعطي للمجتمع الإسلامي تماسكا روحيا قويا وبتفككها تظهر كافة الأمراض الاجتماعية.

ويمكن توضيح كل العمليات السابقة بالمخطط التالي:



خاتمة:

- من خلال ما النموذج (5): يمثل العمليات الأساسية للمجتمع للوصول إلى الحضارة
- إن الإنسان هو الشرط الأساسي لكل حضارة، وإن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني وهذا ما جاء في كتابه وجهة العالم الإسلامي.
 - إن نظريته تصور الواقع الاجتماعي على أنه قابل للتغيير وللتطور، وتؤكد على الدور الوظيفي للإنسان وتدعوه للتغيير الذاتي، وإلى تغيير واقعه الاجتماعي المتخلف وتقدم مشروع تغيير متكامل للعودة بالمجتمعات إلى دور الحضارة.
 - أعطى مالك بن نبي للفكرة الدينية دورا أساسيا في بناء الحضارة، وينطلق في ذلك من ملاحظاته ودراساته المعمقة لنشوء الحضارتين الإسلامية والغربية، وأكد على أن الوظيفة الأساسية للدين بمفهومه العام في إحداث كافة التغييرات الاجتماعية التحويلية الهامة في (الإنسان، والزمن، والتراب) وما يتبعها من معطيات نفسية، واجتماعية تحدث من خلال التغييرات لتحقيق الغاية النهائية لحركة المجتمع حيث يتحقق في النهاية في شكل حضارة.
 - كما حذر من فساد وتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، بتضخيم الأنا والأنانية فيه، لأن ذلك ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية... فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، وهذا ما جاء في كتابه ميلاد مجتمع.
 - أكد على أن قوة الإنسان داخل الدورة الحضارية يستمدّها من: الفاعلية، الفكرة الحية، عم القابلية للاستعمار... الخ ويكون لهذه القوة معنى عندما تتجسد على أرض الواقع لأن المسلمون الحقيقيون بالأفعال وليس بالأقوال.

الهوامش :

- 1- مالك بن نبي: ميلاد المجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، ط 3، دار الفكر، الجزائر، 1986، ص 99.
- 2- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 31.
- 3- نفس المرجع السابق، ص 182.
- 4- محمد شاويش: مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق، 2007، ص 43.
- 5- محي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1962، ص ص 14 - 15.
- 6- فضيل دليو: علم الاجتماع المعاصر ثنائية النظرية والمنهجية، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري (قسنطينة)، الجزائر، ص 67.
- 7- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل المسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1991، ص 83.
- 8- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 78.
- 9- نفس المرجع السابق، ص 108.
- 10- نفس المرجع السابق، ص 113.
- 11- محي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع، مرجع سابق، ص 72.
- 12- محي الدين صابر: نفس المرجع، ص 73.
- 13- نفس المرجع السابق، ص 73.
- 14- عبد المجيد البصير: موسوعة علم الاجتماع ومفاهيم في السياسة والاقتصاد والثقافة العامة، ط 1، دار الهدى، الجزائر، 2010، ص 112.
- 15- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، ط 1، مؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص 31.
- 16- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 66.
- 17- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 66.
- 18- نفس المرجع السابق، ص 69 - 70.
- 19- مالك بن نبي: تأملات، ط 5، دار الفكر، الجزائر، 1991، ص 40.
- 20- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ط 5، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1986، ص 31.
- 21- عبد القادر عرفه: آيات التمكين للإنسان الشاهد من خلال فكر مالك بن نبي، مجلة الكلمة، العدد 33، بيروت 2001م، ص 80.
- 22- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطالب)، دار الفكر، الجزائر، 1991، ص 34 - 33.
- 23- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ط 4، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، 1971، ص 46، 47.
- 24- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 43.
- 25- مالك بن نبي: ميلاد المجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص 23 - 24.
- 26- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 45 - 46.
- 27- مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق، ص 199.
- 28- مالك بن نبي: مهيب المعركة، مصدر سابق - ص 176.
- 29- مالك بن نبي: القضايا الكبرى (مشكلة الثقافة)، مصدر سابق، ص 85.
- 30- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 131.
- 31- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 139.
- 32- نفس المرجع السابق، ص 140.
- 33- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص 52.
- 34- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 52.
- 35- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 105.
- 36- مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 74.
- 37- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 27.
- 38- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص 27.
- 39- مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق، ص 156.
- 40- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري المجلد 10، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم تحت رقم 6011، مكتبة دار السلام، دمشق، 1997، ص 538.